بسم الله الرحمن الرحيم

بواعث الرحلات لدى الأدباء النيجيريين: دراسة تتبّعية في الإنتاجات العربية الرحلية

إعداد/ مصلح الدين يوسف المرتضى القوروي

المحاضر بقسم اللغة العربية، كلية الدراسات العربية والشريعة الإسلامية لولاية كوار، إلورن، نيجيريا.

E-mail Alkorowy2009@yahoo.com /Alkorowy2010@gmail.com Tel; +2348033418077

التوطئة

وإذا كان أدب الرحلة هو تلك النصوص الأدبية المستلهمة من الأسفار، القائمة على خبرات الأديب في وصف علاقته مع المكان، والحركة عبره، والاطلاع على طبيعة الناس والعمران، وما تذخر به الحياة في الجغرافيات المختلفة من اختلاف في أحوال الإنسان، معاشِه ونشاطِه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وميولِه وعاداتِه وتقاليدِه وحياتِه الروحية، فإنه يُعدّ فنا طريفا ونهضة أدبية في مسرح الأدب العربي النيجيري، حيث بدأ هذا الفن ينال اهتمام الأدباء النيجيريين من القرن العشرين الميلادي، وكان يدور حول الأسفار العلمية الثقافية، والدينية الصوفية، والسياحية الاستكشافية، والسياسية الدبلوماسية، التي قام بها العلماء في داخل نيجيريا وخارجها، كرحلاتهم إلى الشرق العربي وشمال إفريقيا، أمثال الحجاز، والعراق، ومصر، وتونس، وليبيا، والسودان، والقدس، اقتفاء بالرحالة العرب أمثال أحمد يعقوب اليعقوبي (ت278ه/891م) في كتابه "البلدان"، وأبي القاسم محمد بن حوقل (ت 367ه/977م) في كتابه "صورة الأرض"، وأبي عبد الله المقدّس (ت390ه/ 999م) في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، وأشهرهم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجي المعروف بابن بطوطة (ت 770ه/1368م) في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

ومحاولتنا في هذا البحث تتجه نحو دراسة تلك الدوافع التي تحرّك الأدباء النيجيريين إلى القيام بالرحلات وهذه المغامرات، وذلك عبر النقاط الموالية:

- خلفية تاريخية عن أدب الرحلة نشأة وتطورا
- الرحلة في الأدب العربي النيجيري
- أسباب الرحلة وبواعثها لدى علماء نيجيريا
- أثر الرحلة في توطيد الثقافة العربية في الديار النيجيرية
- الاقتراحات والتوصيات
- الخاتمة.

والله المستعان وعليه التكلان.

خلفية تاريخية عن أدب الرحلة نشأة وتطورا

تتصل الرحلة بتاريخ الإنسان منذ أقدم العصور حيث يرجع تاريخها إلى الإنسان الأول آدم -عليه الصلاة والسلام- حينما قام برحلته من بساتين الجنة إلى سطح الأرض، وإن كان المؤرخون يطلقون على هذه الرحلة المبكرة أسماء أخرى، مثل الانتقال أو الهبوط أو النزول وغير ذلك.

والرحلة بهذا المدلول اللغوي المعجمي تفيد كل حركة الانتقال والارتحلال من مكان إلى مكان آخر يقع من الإنسان ماشيا كان أو راكبا. أما الرحلة بمفهومها الاصطلاحي الأدبي فهي كما عرّفها الأستاذ عبد الرحمن فهمي: "أدب الرحلة عبارة عن تجسيد فني لتطور الإنسان الفكري، والديني، والعلمي، والثقافي، والسياسي، غايته التعبير الخاص عن الإنسان الاجتماعي والإنسان المطلق وظيفته البحث الدقيق في جوهر الحياة واكتشاف العالم وفهمه ودفع حركة التقدّم الإنساني واستشراق مستقبل أفضل"[1] ويقول الأستاذ عطية محمد سالم:"يعتبر أدب الرحلات فنا مميزا حيث يتطلب قدرة على التعبير ودقة في التصوير؛ لأنه يصف المواقع والمواقف وما يمرّ به مما يستحق التسجيل بوضوح العبارة حتى يجعله كالمحسوس المدرك بالإشارة، مع حسن الاختيار وذوق فيما يختار، ويبرز ما شاهد من مرئيات بأدق وأصدق العبارات وأعذب ما يكون من كلمات وعبارات مما يتطلب ذوقا حسّاسا وحسا ذواقا، ولا يقوي على ذلك إلا عالم بأوضاع البلاد سياسيا واقتصاديا وجغرافيا"[2] وفي وصف أدب الرحلة يقول محمد أحمد خليفة السويدي:"أدب الرحلة يشكل ثروة معرفية كبيرة ومخزنا للقصص والظواهر والأفكار، فضلا عن كونه مادة سردية مشوقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفس تنفعل بما ترى، ووعي يلمّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهر ويتفكر بها"[3].

ونستنتج من خلال هذه التعريفات أن أدب الرحلة فن التعبير عن مشاعر تختلج في نفس الأديب المغترب تجاه كل ما يراه ويعايشه ويقرأه عن ملامح بلد أجنبي من عادات وتقاليد سكانه، وخلفيته السياسية والثقافية والاجتماعية والأحداث التي يعايشها الأديب والمواقف التي تأثر بها، والهموم التي عاناها في ذلك البلد الأجنبي بل في طريقه إليه، سواء أطالت أم قصرت مدة إقامته فيها.

هذا، ولقد عرف العرب الرحلات منذ جاهليتهم، وكانت عنايتهم بها عظيمة في سائر العصور؛ نتيجة اتفاقها مع عادتهم وتقاليدهم؛ إذ أنهم بطبيعة حالهم رحالة ينتقلون من مكان إلى مكان طلبا للماء وانتجاعا للمرعى، كما حمّلهم أيضا على هذه الرحلات الكرّ والفرّ في الغارات والحروب القبلية المستمرة، وكذلك التبادل التجاري مع الأقاليم المجاورة الذي شاع أمره بين سكّان الحضر من أمثال قريش، ولأهمية هذا النوع الأخير بين العرب أقسم الله به في القرآن الكريم حيث يقول:"لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف". (سورة قريش الآية 12)

ولم تقتصر هذه الرحلات العربية القديمة على البرّ فقط بل كانت لهم صولات وجولات في البحر أيضا وفي تصوير هذا يقول شوقي ضيف:"وبمجرد أن أسّس العرب دولتهم أخذوا يتصلون بالبحار القديمة مثل البحر الأحمر وبحر الروم أو البحر الأبيض المتوسط، وكان لهم في الأخير أساطيل تحمي ثغورهم، وأخذت قوافل التجار تعبره كما أخذت تعبر البحر الأحمر أو بحر القلزم"[4].

وما إن وصل العرب العصر الإسلامي حتى تلقوا ما يشجّعهم إلى القيام برحلات في تعاليم إسلامية، من تحفيز إلى حج بيت الله الحرام، يؤكد على ذلك قوله تعالى: "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق" (سورة الحج الآية 27). ومن حثّ نحو طلب العلم ولو كان في الصين، ومن دعوة إلى السير في الأرض والتأمل والتفكير في آيات الله: "أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمّروها أكثر مما عمّروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"(سورة الروم الآية 9). وإلى جانب هذا ولقد توسعت رقعة الدولة الإسلامية وترامت أطرافها وانتشر المسلمون شرقا وغربا من الهند إلى الأندلس نتيجة الفتوحات الإسلامية المتعددة التي قدر الله انتشار الإسلام بها[5] وفي هذا يقول أبو سعد:"إن هذه الفتوحات أتاحت للمسلمين وسائل السفر في إمبراطوريتهم المتباينة الأطراف وهيأت لهم أسبابه ومكنتهم من أن ينشروا لغتهم ومبادئ دينهم ومدنيتهم في كل ناحية، فلم يبق التجواب ضربا من التغرّب لأن العربي كان يجد أينما حلّ قوما يفهمون لغته..."[6]

وعلى هذا عرف التاريخ العربي والإسلامي أدب الرحلات منذ القدم، وكانت العناية به عظيمة عبر العصور الممتدة، وإن كان الحديث عن تدوينهم لهذه الرحلات يرجع أقدمه إلى رحلة سلام الترجمان إلى حصون جبال القوقاز عام 227هـ بتكليف من الخليفة العباسي الواثق؛ للبحث عن سدٍّ يأجوج ومأجوج، وفي هذا يقول شوقي ضيف:

> ولم يدوّن العرب أخبار الرحالة الأوائل، ولكنا لا نصل إلى القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ونقرأ كتبهم الجغرافية والتاريخية حتى نجدهم قد عرفوا معرفة دقيقة أخبار الأمم من حولهم، مما يدلّ على كثرة الراحلين والسائحين. ومن أقدم من يذكرونهم في هذا الباب سلام الترجمان الذي يقال إن الخليفة الواثق(842-847م) أرسله في بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السدّ الذي بناه الإسكندري في ديار يأجوج ومأجوج... [7]

ورحلة التاجر سليمان السيرافي بحراً في المحيط الهندي في القرن الثالث الهجري، ودوّن خلالها الكثير من المعلومات التي تعتبر وثائق من الدرجة الأولى لوصف طريق التجارة بين الخليج والهند، وفي وصف هذا العمل يقول الدكتور منتصر مجاهد أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة قناة السويس: "إن سليمان

رحالة وتاجر، رائد الرحلات البحرية إلى الشرق الأقصى، عاش في القرن التاسع الميلادي، وأغلب الظن أنه اتخذ إحدى المدن على ساحل الخليج العربي مقرا له، وليس هناك معلومات كثيرة عن حياته..."[8].

ثم تأتي رحلات كلٍّ من المسعودي مؤلف كتاب (مروج الذهب)، والمقدسي صاحب (أحسن التقاسيم ومعرفة الأقاليم)، والإدريسي الأندلسي في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، هذا بالإضافة إلى رحلة الرحالة المؤرخ عبد اللطيف البغدادي. وتأتي رحلة البيروني (ت 440 هـ) المسماة (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) نموذجاً فذاً، إذ تعدّ وثيقة تاريخية مهمة تجاوزَت الدراسة الجغرافية والتاريخية إلى دراسة ثقافات مجتمعات الهند القديمة؛ إذ يتناولها البيروني بالتحليل ويقارن بينها وبين اللغة العربية على نحو جديد.

ويعدّ القرن السادس الميلادي وما يليه من أكثر القرون إنتاجًا لأدب الرحلات، ومن أهم ما يطالعنا ضمن النماذج العديدة نموذجان أولهما: رحلة ابن جبير الأندلسي (ت 614ه) وثانيهما رحلة ابن بطوطة (ت779هـ) وهو أعظم رحالة المسلمين، وقد بدأت رحلته عام 725هـ من طنجة بالمغرب إلى مكة المكرمة، وظل زهاء تسع وعشرين سنة يرحل من بلد إلى بلد، ثم عاد في النهاية ليملي مشاهداته وذكرياته على أديب كاتب يدعى:محمد بن جُزَيّ الكلبي بتكليف من سلطان المغرب وسمَّى ابن بطوطة رحلته "تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". وروى ابن بطوطة مشاهداته لبلدان إفريقية، كما صور الكثير من العادات في مجتمعات الهند بعد ثلاثة قرون من الفتح الإسلامي لها. والرحلة في عمومها، صورة شاملة دقيقة للعالم الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري، وإبرازٌ لجوانب مشرقة للحضارة الإسلامية والإخاء الإسلامي بين شعوبه، بما لا نجده في المصادر التاريخية التقليدية[9].

وهناك في أدب الرحلات، في القرن الثامن الهجري، كتاب "خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف" لأديب غرناطة الشهير:بـ (لسان الدين بن الخطيب) (776هـ). ولابن خلدون في أدب الرحلا "نفاضة الجراب في علالة الاغتراب" وصف فيه مشاهداته في بلاد المغرب، خلال نفيه إليها، وهو في ثلاثة أجزاء. هذا بالإضافة إلى كتابه "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا" وهو مزيج من السيرة الذاتية وأدب الرحلات مكتوب بلغة سلسة، مع وصف دقيق لرحلته إلى كل من بلاد الأندلس حين أقام فيها منفيًّا، وبلاد الفرنجة حين أوفده أحد أمراء بني الأحمر إليها، ثم مصر التي أقام فيها قرابة ربع قرن متقلِّبا بين مناصب التدريس والقضاء.

وفي العصر الحديث، أصبح أدب الرحلات شكلاً فنيًا داخلاً في الأدب، وليس دراسة تاريخية وجغرافية حيّة كما كان من قبل، ومن نماذجه في القرن التاسع عشر: "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة رافع الطهطاوي (ت1873م)، الذي رافق البعثة التي أرسلها محمد علي للدراسة في فرنسا، ليكون واعظًا وإمامًا. وتصور رحلة الطهطاوي انبهاره بمظاهر النهضة الأوروبية، مع نقد لبعض عوائدهم في

أسلوب أدبي. كما يلقانا أحمد فارس الشدياق (ت 1887م) بكتابه: "الواسطة في أحوال مالطة"، وقد وصف صنوفًا من العادات والتقاليد، وبخاصة النساء المالطيات، كما تلقانا رحلة أمين الريحاني التي أسماها "الريحانيات"، وقد سجل مشاهداته في بلدان عربية ووصف عادات أهلها، كما زار بعض ملوك العرب ومن بينهم المغفور له الملك عبد العزيز، وسجّل لنا بعض أحاديثه وآرائه، هذا إلى رحلات الأديب المصري حسين فوزي التي سمّاها "السندباد العصري"، ورحلة توفيق الحكيم المسماة "زهرة العمر" وفيها يتناول بحسّ مسرحي قصصي جوانب من الحياة في باريس.

ولقد شاع من أدب الرحلات في تراثنا أدب الرحلات الحجازية، حيث عرف الأدب الحديث نماذج منها "الرحلة الحجازية للبتانوني" ورحلة شكيب أرسلان "الارتسامات اللّطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف" وهي تمضي بشكل عفوي على طريقة القدماء، وفيها قابل الملك عبد العزيز، وسجل لنا صورة إعجاب بشخصيته، كما اعتبر موسم الحج فرصة لاجتماع الصف الإسلامي وتحقيق الوحدة الإسلامية.

وتعد رحلات حمد الجاسر لونًا جديدا في أدب الرحلات إذ سجل لنا رحلاته إلى مكتبات أوروبا بحثا عن المخطوطات المتصلة بالجزيرة العربية، وسرد أسماء العديد من المخطوطات ومحتوياتها وآراءه عنها، مع سرد لبعض النوادر والمواقف، التي تدخل بهذه الرحلات مجال الأدب الشائق الطريف. ويمثل هذا كله بعض إنتاجات العرب الرحلية انطلاقا من القرن الثالث الهجري حينما رأينا سلام الترجمان الذي ينسب إليه الأسبقية في الرحلات بين أوساط العرب، قبل أن يأتي بعده رحلات الأدباء في كل عصر من العباسي والتركي والحديث.[10]

الرحلة في الأدب العربي النيجيري

مضى على الثقافة العربية في نيجيريا قرون لايهتدي علماؤها إلى فن الرحلة كتابة أو دراسة، حيث أثبت تحديد عصور الأدب العربي في غرب إفريقيا بما فيها الدولة النيجيرية أن هذه العصور الأدبية تنقسم إلى ستة أقسام: عصر الاستهلال، وعصر الاسترشاد، وعصر الاستقرار، وعصر الاستعمار، وعصر الاستقلال، وعصر الازدهار.[11]وانطلاقا من هذا التقسيم ليس أمامنا ما نبرهن به على وجود الإنتاجات الرحلية –بصفتها الأدبية الفنية الشائقة- في أعمال علماء نيجيريا مع كل ما سجل لهم التاريخ عبر العصور الممتدة من رسوخ الأقدام والتضلّع في الثقافة العربية خصوصا في عصر الاستقرار، حينما استخدمت العربية لسان الدولة وكانت هي اللغة الرسمية الوحيدة، ولعل أسباب غياب هذا النوع من أعمال هؤلاء العلماء تكمن في أن الحياة الأدبية والثقافية التي عايشها أولئك العلماء في أوائل هذه العصور من عصر الاستهلال والاسترشاد والاستقرار تخضع كل خضوع لما تتطلب منهم البيئة حيث كانت الحياة فيها لا تتكلف جهد رحلة خارج نطاق المنطقة، بل يكتفون بالعلماء الأجانب الواردين إليهم من المشارق فيعلمونهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم، ومن هذه الأسباب أن نوع المنهج الدراسي الذي ساروا عليه، وهو منهج في جملته

وتفصيله لم يوضع أساسا للمهارة الفنية، وهدفهم في دراسة الأدب وفنونه ليس لحد ذاته، لكن للغرض الدّيني؛ ولذا ليس من السهل أن نفرق بين العلماء والأدباء في هذه العصور فالعلماء هم الأدباء وهم قادة الفكر وهم الذين يقومون بتدريس الدين واللغة والأدب وكانت عنايتهم بالدراسات الإسلامية هي التي جعلتهم ألا يُقبلوا على غيرها إلا بقدر ما يستعينون به على قضاء حوائجهم الدينية، وفي هذا يقول غلادنثي:

> وكان من بين العلماء نفر مالوا بطبيعتهم إلى الأدب، فدرسوا ما وصلهم من كتب الأدب دراسة وافية، وجعلوا يتذوقونه ويسلتذونه ويحاولون محاكاته، ولكنهم في كل ذلك لم يكونوا يدرسون الأدب بوصفه مستقلا بنفسه، بل على أنه جزء من تلك الثقافة الدينية التي يهدفون إليها، وذلك لأن لغتهم لم تكن العربية، ولكن تمسكهم بالدين كان يدفعهم إلى تعلمها وإتقانها[12].

ومما جعل الرحلات فنا غير معروف لديهم من ناحيتي الأسلوب والفن عدم وسائل السفر التي تمكنهم من اقتحام غمار المحيطات، وتسهل لهم صعوبة المواصلات بالإضافة إلى عدم الملاح المهرة بينهم[13] كما انشغل العلماء بالحركات الإصلاحية التي هي شغل شاغل العلماء في عصر الاستقرار وعلى رأسهم الشيخ عثمان ابن فودي زعيم الجهاد وأخوه الشيخ عبد الله.

وبناء على هذا فالحديث عن الأدب الرحلي بمعناه الفني والإبداعي في الأدب العربي النيجيري يرجع إلى عصر الاستعمار وعلى وجه التحديد في منتصف القرن العشرين الميلادي حينما وجد على مسرح الحياة الأدبية والثقافية أول كتاب الرحلة "إتحاف الحاضر بمرائي المسافر" للأديب الرحالة جنيد بن الوزير محمد البخاري بن أحمد بن عثمان الفلاني الصكتي الشهير بالوزير جنيد وذلك سنة 1945م وفي الكتاب يصوّر الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور في أثناء رحلته الرسمية الأولى التي قام بها من ضمن البعثة التي أرسلتها الحكومة النيجيرية إلى المملكة العربية السعودية لتفقد أحوال الحجاج النيجيريين والمشاكل التي يواجهونها، وللأديب أعمال رحلية تقرب سبعة مؤلفات وهو بحق رائد رحلات في الديار النيجيرية، ثم جاء بعده العلامة الإلوري آدم عبد الله سنة 1946م بقصيدته اليائية التي يصف بها رحلته العلمية إلى القاهرة مارا بالخرطوم بدولة السودان والشاعر في هذه القصيدة استطاع أن يصف دقائق الأمور المتعلقة برحلته بداية من توديع أرض نيجيريا إلى حسن تبريره للأسباب التي حملته على هذه الرحلة، ثم ذكر أسماء المرتحلين معه ووصف دقيق لكل ما عانوه من المشقات وهم في طريقهم إلى القاهرة، وكيف كان حاضرها، يمثل هذان الأديبان نقطة الانطلاق واللبنة الأساسية لفن الرحلة في نيجيريا، قبل أن يأتي بعدهم عدد كبير من الأدباء بإنتاجات رحلية قيمة، منهم الشيخ محمد بن محمد بللو الملقب بسركن تفسير(إمام مدينة بوثي) في وصف رحلته (شعرا) مع أمير بوثي يعقوب بن عمر إلى لاغوس عام 1946م.

ثم جاء الشيخ الحاج محمد البوصيري سلمان الألوري عام 1964م في رحلته "ذكريات في الأزهر بين الماضي والحاضر" والشيخ محمد بن إبراهيم ميماسا النفاوي الإلوري عام 1975م في رحلته " فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق" ثم جاء الشيخ الإمام أبو بكر ابن الإمام صلاح الدين أبرغدوما الإلوري في أوائل الثمانينيات من القرن العشرين وذلك في رحلته "مآثر الخيرة في زيارة صاحب الفيضة بمدينة كولخ".

وإذا كان هؤلاء العلماء يمثلون الرحالة النيجيريين في القرن العشرين، وقد جاء بعدهم كوكبة من الأدباء الرحالة الذين أبلوا بلاء حسنا في المجال وسجّلوا عن انطباعاتهم الرحلية ما يدعو إلى الإعجاب، وما يدخل به أدب الرحلة في النهضة الأدبية بالديار النيجيرية، وفي مقدّمتهم الشاعر الأخ إسحاق أيوب ببأويي الإلوري (2001م) في قصيدته الرائية المعنونة بـــــ:" استغِلّ هذا المجالَ للتعرّف على قرية العربية بإنغالَ" التي يصف بها رحلته التعلّميّة مع زملائه الطلبة إلى قرية إنغال بولاية برنو، نيجيريا وفاء لبعض متطلبات الحصول على درجة الليسانس في جامعة إلورن عام2001م، والأخ مرتضى عبد السلام الحقيقي، (2002م) في كتابه "السنة" يصف به رحلته العلمية إلى جمهورية النيجر، وكذلك منير الدين الرياضي ابن صلاح الدين(2008م) في ديوان شعره "العبرة: قصائد في الدعوة والإرشاد والتوجيه" وذلك في قصيدته المعنونة بـــــ "هكذا أُبْتليتُ" حيث يصف بلواه في رحلته العلمية إلى جامعة عثمان بن فودي صكتو، نيجيريا، وفي مختتم القصيدة يقول:

قد ذقتُ مرّا وحلوا عند جامعتي في الجامعات مشقّات لذي أدب[14].

وللدكتور مشهود محمود جمبا،(2009م) محاولة جادة وإضافة معرفية في مجال أدب الرحلات، في كتابه "من إلورن إلى تمبكتو (رحلة عبر جنوب الصحراء الكبرى بحثا عن ماضي إفريقيا)" الكتاب الذي يتألف من اثنتين وسبعين صفحة بنصه العربي، حينما وقعت ترجمته إلى الإنجليزية في ستين صفحة وفيه دوّن الكاتب مشاهداته في رحلته من مدينة إلورن إلى مدينة تمبكتو بجمهورية مالي، ومن هذا النوع كتاب "الرحلة" لعلي عبد القادر العسلي(2009م) الكتاب الذي يتألف من اثني عشر فصلا في ستين صفحة، حيث يصف رحلته إلى جمهورية النيجر لغرض التعلّم في المرحلة الجامعية، ثم جاء إبراهيم جنيد الأبيوكوتي،(2010م) في رحلته "زيارة ابن جنيد لمدينة الكولخ" والكتاب بدوره وصف دقيق لرحلة الكاتب إلى مدينة كولخ، مستعينا في توضيح ذلك ببعض صور التقطها مع رفقاء رحلته وأخرى لبعض الأماكن العجيبة بداية من مدينة بورتونوفو بجمهورية بنين، مارّا ببوركينافاسو ومالي، ثم أخيرا سنغال حيث مدينة كولخ[15].

أسباب الرحلة وبواعثها لدى علماء نيجيريا

فإنه لاجدال في أن وراء كل حركات دؤوب يقوم بها الإنسان دوافع وبواعث تشخذ هممه وتجدد نشاطه، ويقلّل الإنسان إثرها الصعوبات والعقبات التي قد تحول بينه وبين بغيته، انطلاقا من هذه الفكرة ولقد تنوعت الدوافع والأسباب التي تؤدي إلى القيام بالرحلات تبعا لاختلاف البيئات والأجناس القائمين بها، كما تعددت العوامل التي تدعو إلى تدوينها، والمتأمل في أسباب تدوين الرحلات لدى الأدباء العرب مثلا يدرك أنها تتجسد في طلب الحاكم من الرّحّال تدوين الرحلة، أو أن يطلب بعض الأصدقاء ذلك، أو تكون رغبة الرحّال أنفسهم في إفادة القراء وتثقيفهم بالجديد، أو رسم ما يمثّل الخريطة للمسافرين فتكون دليلاً لهم، وكذلك لإبراز مناسك الحج والعمرة، وإعانة المسلمين على معرفة الديار المقدسة وكيفية الوصول إليها والتجوّل فيها، أو لتاريخ البلدان وحضارتها وشعوبها، أو لإبراز معالمها وعجائبها وعاداتها وتقاليدها، وإن كان الأمر لايتفق مع ما كان عليه الأدباء النيجيريون في جميع الأوجه، ومهما يكن من أمر فلقد اتخذ هذا الفن الرحلي موقفا حسّاسا في إنتاجاتهم الأدبية لدوافع متباينة من دافع علمي ثقافي، وديني صوفي، وسياحي استكشافي، وسياسي دبلوماسي.

الدافع العلمي الثقافي

تنكشف إثر الجولات العلمية والدراسات الاستقرائية فيما أوردناه من هذه الرحلات تلك الأسباب، والمتأمل في كتاب "ذكريات في الأزهر بين الماضي والحاضر" للشيخ محمد البوصيري سلمان يدرك أن سبب رحلته يرجع إلى تحصيل العلوم وثقافتها، ويكفي للتعرّف على هذا السبب ما ورد في قول المقرّظ الثاني للكتاب، الشيخ محمد حسن علي سلمان أحد المدرسين بالأزهر معهد عثمان ماهر الديني، حيث يقول:

> لقد كان لي شرف المرافقة لصديقي الفاضل الشيخ الحاج محمد البوصيري سلمان في تلك الرحلة المليئة بالمغامرات فقد عشت معه نعبر الفيافي والقفار، ونجتاز السدود والبحار، فنوغل في الغابات والأدغال، ونقف صامدين أمام جبروت المستعمر المستبد، نصده بعزم أكيد وقوة جبارة، حفزنا إلى الظهور بها هدف سام وغرض نبيل ألا وهو اللحاق بركب الحضارة الإسلامية الذي بدأ سيره من منارة العلم في القاهرة، من الأزهر المعمور[16].

يتضح من خلال هذا التقريظ ما ترمي إليه هذه الرحلة والهدف الأساسي الذي حفز الرحالة إلى القيام بها، والأمر لا يختلف عند العلامة الإلوري آدم عبد الله حينما يوضّح الأسباب التي حملته على رحلته ويقول:

لماذا لأني لا أروم تـفــاخرا ولـكن لمن قد ضل أطلب هاديا

رأيت بلادي بالتقاليد أرهقت تقدم من أضحى عن الدين نائيا

لهذا خرجنا قاصدين الأزهرا لإســقاط ريب القلب مما بدا ليا[17]

والإلوري في هذه الأبيات يذكر السبب الذي حمله على هذه الرحلة الأمر الذي يتخلص في البحث عما يثقّف به قومه ويحرّرهم من ربقة التقاليد الجاهلية التي تسيطر عليهم وتحكم بلادهم، وإلى هذا الدافع ينتمي كلٌّ من رحلة "استغِلّ هذا المجالَ للتعرّف على قرية العربية بإنغالَ"لإسحاق أيوب ببأويي، والمتأمل في قصيدة ببأويي هذه يدرك غايته في هذه الرحلة، وفي مطلعها يقول:

خرجـــنا بعون الله من كـوار إلى بلاد شمال شــرق أرض النياجر

خرجنا بـــضيق الصدر حقا فإننا تركنا جوار الأهل وقت السوافر

ونبكي بدمع الـــعين مع أهل بـيننا وطورا بقلب حـــائر مــتكاسر

قصدنا طلاب العلم والعبر والحـكم نواسي ببرد الصـبح ألم الخواطر

وكلنا شؤون الأهل والـــشغل ربّنا خلـــيفة أهل صاحبا للـــمسافر[18]

وعلى هذا النهج سار كتاب "السنة" لمرتضى عبد السلام الحقيقي، ورحلة "الرحلة" لعلي عبد القادر العسلي.

الدافع الديني الصوفي

أما الدافع الديني فيتمثّل في التصوّف لدى جلّ الرحالة النيجيريين، كما يتضح ذلك في كتاب "فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق" للشيخ محمد بن إبراهيم ميماسا النفاوي، الرحلة التي قام بها مع وفد من القادريين النيجيريين، والقارئ المدقّق في هذه الرحلة يدرك ما يميل إليه الرحالة من النزعات الصوفية، تراه في توضيح الأغراض من هذه الرحلة يقول:

> فجرت عادة المؤلفين أن يبدؤا كتبهم ومؤلفاتهم بمقدمة يبيّنون فيها طرفا من موضوع كتبهم ومؤلفاتهم ويشرحون فيها أغراضهم ومقاصدهم، فلذلك ينبغي للقارئ المبتدئ مثلي هذا الكتاب المتضمن لأخبار رحلتنا إلى حضرة الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني والجيلاني في بغداد قدّس الله سرّه ونوّر ضريحه آمين وإلى بعض بلاد العرب لزيارة قبور الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وإلى قبور الأولياء الكرام والعلماء رضي الله عنهم.."[19]

وفي هذه القطعة ينبلج الغرض الأساسي من هذه الرحلة بصورة واضحة، ويظهر الهدف من القيام بها، وفي هذا الغرض وردت أيضا رحلة "مآثر الخيرة في زيارة صاحب الفيضة بمدينة كولخ" للشيخ الإمام أبي بكر ابن الإمام صلاح الدين أبرغدوما، ويقع الكتاب في ثمان وثلاثين صفحة بعد الغلاف الأمامي الذي يحمل عنوان الكتاب، وفيه قصيدته الرائية التي تقع في تسعة وخمسين بيتا، يصور فيها رحلته الثانية لزيارة مشايخ مدينة كولخ ومنها قوله:

أبوبـــكر الصديق يذكر سيره لكـولخ لـــم يبرح به كان شاكرا
وذلك الســـــير لزيارة ثانية مـشـائخ فـــيها وبهم كنت ناظرا
ولما نزلنا أرض غـمبيا نلتقي بعـــثمان باجي كان للعظم جابرا[20]

وكذلك رحلة ابن جنيد المسماة بـــ"زيارة ابن جنيد لمدينة الكولخ" لإبراهيم بن جنيد موديبولا، وفي وصف هذه الرحلة يقول:

فارقت بيتي صبح السبت مبتكرا مواجها للغوس قـــصد كولاخا
رافقني من لــه شـــوق لفيضتنا لـشاكر الله جـــــار الله كولاخا
ثم سـليمان حبّي عنـــــده ودّنا جـزاكما الرب خيرا دام كولاخا[21]

الدافع السياحي الاكتشافي

ويظهر هذا الدافع بصورة جلية وذلك في رحلة "من إلورن إلى تمبكتو (رحلة عبر جنوب الصحراء الكبرى بحثا عن ماضي إفريقيا" للدكتور مشهود محمود جمبا، ولعل في عنوان الكتاب ما يرمز إلى هذا، حيث يشير الكاتب بهذا العنوان إلى الغاية والهدف من الرحلة، الغاية التي تهدف إلى الاستكشاف والبحث عن ماضي إفريقيا، واستطاع الكاتب بمهارته أن يضع خطة رحلته في الخريطة المرسومة في غلاف الكتاب، الخريطة التي تحتوي على عدد من الدول الإفريقية التي مرّ بها الرحالة وفي توضيح الأغراض والأهداف المحرّكة تجاه هذه الرحلة يقول الكاتب:

> لقد أثار فيّ هذا الطلب رغبة جامحة، واستنهض فيّ الهمة، إذ أحسنت المرأة بي الظن، فما علي أن أضنّ، فآليت على نفسي لألبينّ حاجتها على الرأس والعين، وأحقق بالرحلة جملة من الأهداف، أولها تحقيق أمل هذه المرأة الواعية الغيورة على دينها وتراثه، وثانيها إشباع غريزة شخصية متمثلة في زيارة غرائب الأماكن للبحث والتنقيب، فكم قرأت عن تمبكتو، وسنكوري، وقرع سمعي غاوْ، وجَنَّي، وغدامس، وأغدس، وشنقط، وبرنو

وغيرها من الحواضر الثقافية الإسلامية بإفريقية الغربية وتاقت نفسي زيارتها، وثالثها رغبتي الشديدة في تغيير الجوّ والترويح من الأعمال الأكاديمية المتضافرة عليه، والخدمات الاجتماعية التي أنوء تحت وطأتها[22].

الدافع السياسي الدبلوماسي

أما الدافع السياسي الدبلوماسي فكادت جميع رحلات الوزير جنيد تنحصر في هذا النوع، وعلى سبيل المثال كتب رحلته الأولى المسماة "إتحاف الحاضر بمرائي المسافر"سنة 1945م مصورا بها رحلته إلى السودان والحجاز من ضمن وفد أرسلته الحكومة النيجيرية لتفقد أحوال الحجيج وما يواجهونها من المشاكل، ثم كتب سنة 1962م رحلته"الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة" عن رحلة وفد أرسلته حكومة شمال نيجيريا برئاسته هو لدراسة مناهج تعليم العلوم الإسلامية في تلك الدول والنظر في كيفية الاستفادة منها في مدارس علوم الدين الإسلامي في مديريات شمال نيجيريا.وفي سنة 1962م أيضا كتب "رحلة أغدس" وفي هذه الرحلة رافق الوزير السيد أحمد بلو رئيس وزراء شمال نيجيريا -سابقا- في زيارته إلى أغدس في جمهورية النيجير. وفي سنة 1964م كتب"تفريج النفس بذكر زيارة العراق والقدس" وكانت مناسبة هذه الرحلة هي الدعوة التي وصلت إلى رئيس وزاراء نيجيريا الحاج أحمد بلو سردون صكتو من الملك حسين ملك الأردن لحضور حفل افتتاح المسجد الأقصى بعد انتهاء أعمال الإصلاح والترميم، وكان الوزير جنيد من الذين اختارهم الرئيس أحمد بلو للمرافقة[23].

ويقول في مقدمة رحلته "الرحلة الفاخرة": " أما بعد فهذه نبذة سميتها **الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة** نذكر فيها بعض ما جرى لنا في هذه الرحلة المباركة من زيارة الأماكن المقدسة والمحلات القديمة والمدارس العلمية والمباني الأنيقة والأشياء العجيبة مما لم تجر عليه سيول النسيان، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعينني على إتمام ذلك على وجه ما أردته..."[24] وعلى النهج وصف لنا الرحالة المسجد الأقصى في رحلته "تفريج النفس"ويقول: " وبعد الاحتفال دخلنا قبة الصخرة المشرفة وهي قبة كبيرة على الصخرة التي عرج النبي-صلى الله عليه وسلم- منها إلى السماوات وقد تقدم أن عبد الملك بن مروان هو الذي أمر بتشييدها وفي قبلة القبة محراب يصلي الناس فيه فتقدمنا إليه وصلينا ثم قصدنا الصخرة وهي محوطة ببناء ملبس بعود أملس والبناء المحيط بها قدر القامة بحيث يرى الناس ظهر الصخرة من الخارج والصخرة مجوفة تسع جماعة من الناس يدخل الداخل فيها من باب وينزل على درج تبلغ عشرة فيصل بداخلها فيجد مكانا واسعا مبلطا بالرخام وفي أعلى الصخرة قبة كبيرة مدورة يدخل منها الضوء" [25]

أثر الرحلة في توطيد الثقافة العربية في الديار النيجيرية

وإذا كان العرب–حسب ما طالعنا في هذا البحث-قد جابوا العالم ودوّنوا يومياتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صورا لما شاهدوه، وازدادوا حضارة وتوسعوا ثقافة؛ نتيجة هذه الرحلات المتنوّعة التي مارسوها،

واستطاعوا بفضل هذا أن يكتشفوا معلومات إثر احتكاكهم مع الآخرين، فالأمر لايختلف عما رأينا في رحلات علماء نيجيريا حيث قاموا بها لتكحيل عيونهم بصورة النهضة الحديثة مدفوعين –غالبا- بشغف البحث عن الجديد، ولا غرو وقد عُدّت البعثات التعلّمية عاملا مهما من عوامل النهضة الأدبية الحديثة، ولقد عملت هذه البعثات عملتها في الأدباء النيجيريين، وكان لها أثر إيجابي مباشر وغير مباشر في اللغة العربية حيث أتاحت الفرصة للمبعوثين أن يعيشوا في بيئات غير بيئاتهم الأولى وأن يتصلوا بالحضارة العربية اتصالا مباشرا وأن يندمجوا في مجتمع عربي اندماجا وسّع مداركهم، وعاد جلّ هؤلاء المبعوثون بثقافة عربية ممتازة، وفي هذا يقول الدكتور علي أبوبكر:

> ...ثم حذت بعض الدول العربية أيضا حذو الجمهور العربية المتحدة وقدّمت منحا دراسية للطلاب النيجيريين منها العراق، والسودان، وليبيا، والسعودية، ولبنان، وسوريا. فإذا أتم هؤلاء الطلبة دراساتهم المختلفة وعادوا إلى نيجيريا فإن الثقافة العربية ستتدخل مرحلة جديدة لم يسبق لها مثيل في تاريخ حياتها لا في ميدان التدريس فحسب، بل وفي ميدان النشر والتأليق أيضا[26]

ولعل النظرة العابرة إلى بعض هذه الإنتاجات الرحلية التي أوردناها في هذا البحث تكفي لإبراز أهميتها وأثرها في توطيد الثقافة العربية بهذه الديار، والناظر في كتاب "الرحلة الفاخرة إلى ليبيا والسودان والقاهرة" لرائد الرحلات في نيجيريا الوزير جنيد يدرك مدى تأثير الثقافة العربية في الثقافة النيجيرية، ذلك حينما بعثت حكومة شمال نيجيريا وفدا إلى البلدان العربية(ليبيا والسودان والقاهرة) ليدرسوا مناهج تعليم العلوم الإسلامية في تلك الدول والنظر في كيفية الاستفادة منها في مدارس علوم الدين الإسلامي في مديريات شمال نيجيريا، وإذا كان هذا في المستوى الحكومي فلقد اتجه إلى هذه الدول أفراد المجتمع النيجيري زرافات ووحدانا للغرض التثقّفي، كما رأينا في كلٍّ من الشيخ محمد البوصيري سلمان صاحب ذكريات والعلامة الإلوري آدم عبد الله واللاحقين بهما، وشاءت إرادة الله أن يأخذ هؤلاء من الثقافة العربية أوفر نصيب، استطعوا أن يمثلوها بين أهليهم وذويهم.

الاقتراحات والتوصيات

انطلاقا مما توصّلنا إليه خلال هذا البحث المتواضع يستحسن بالباحث –مع كل روح التواضع- وضع اقتراحات وتوصيات قد تعمل في تطوير وتقديم الأعمال العربية الأدبية نحو حياة أفضل، خصوصا في هذه الديار النيجيرية، حيث وجدت هذه الإنتاجات الرحلية المدروسة، منها:

- تشجيع كتّاب هذه الدولة وتحفيزهم في إكثار من كتابة هذا النوع من الأدب العربي تجاوبا مع أهميته في تقريب البعيد، وكونه ثروة معرفية كبيرة ومخزنا للقصص، وما يحتوي عليه من الأوصاف المشوّقة، ترتاح النفوس إلى ملاقاتها.

- إيجاد موقع إنترنيت خاص يعتني بهذا النوع من الأدب العربي، ويخصّص هذا الموقع للإنتاجات الرحلية النيجيرية، حيث يدخّر فيه ما سطرته أقلام الأدباء النيجيريين في المجال، على نحو ما رأينا في المركز العربي الجغرافي في موقعه العنكوبوتي www.alrhla.com

- عقد ندوات علمية من قبل جامعاتنا النيجيرية العريقة تنظر في الرّحالة النيجيريين، حيث تتسنح الفرصة للتعرّف على عدد كبير من الرحالة النيجيريين ومكتوباتهم الرحلية.

- إيجاد لجنة ثقافية تعمل بمحاولات متواصلة على نشر المخطوطات الرحلية التي لم تر –إلى الآن- نور الطباعة، بعد عرضها لتقويم علمي يؤهلها للطباعة.

- مراجعة الأبحاث الأكاديمية بمستوياتها المتباينة في أدب الرحلة العربي -من قبل الجامعة- وإعطاء إجازة الطباعة والنشر لكل ما يستحقه منها.

الخاتمة

أدركنا في هذا البحث المتواضع تلك الجهود الجبارة التي بذلها علماء نيجيريا في نشر الثقافة العربية، كما انكشف فيه مدى تضلع هؤلاء العلماء في إصدار الأعمال العربية الأدبية، الأعمال التي يعدّ فيها أدب الرحلة جانبا طريفا، حيث عبّروا عن هذا اللون من الأدب بتعبيرات لطيفة تصف علاقتهم مع المكان والحركة عبره، والإطلاع على طبيعة الناس والعمران، وكذلك أدركنا تلك البواعث والدوافع التي تحركهم نحو هذه الرحلات الدوافع التي تتخلص في الدافع العلمي الثقافي، والديني الصوفي، والدافع السياحي الاكتشافي، والسياسي الدبلوماسي، وإن كان للدافع العلمي بين أخواتها نصيب الأسد.

الهوامش

1. سليمان صالح الإمام الحقيقي، (1431ه/2010م) أدب الرحلة عند العلامة الإلوري ط1 مكتبة جمعية الأبرار كنو- نيجيريا ص32-33 نقلا من كتاب رحلات السندباد السبع ص110 لعبد الرحمن فهمي.
2. محمد الأمين الشنقيطي الجكني (الشيخ) (التاريخ غير متوفر) رحلة الحج إلى بيت الله الحرام دار ابن تيمية للطباعة والنشر القاهرة، من كلمة عطية محمد سالم في تمهيد الكتاب ص 5
3. محمد الغسّاني الأندلسي، (2002م) رحلة الوزير في افكاك الأسير 1690-1691 ط1 دار السويدي للنشر والتوزيع أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة ص 9 من استهلال الكتاب لمحمد خليفة السويدي
4. شوقي ضيف (الدكتور) (1956م) الرحلات ط4 دار المعارف، ص 25.
5. الطاهر محمد داود (الدكتور) (2006م)، أدب الرحلة عند الوزير جنيد، س. ك. أحمد للطباعة رقم 33 شارع بلو، كنو-نيجيريا. ص 37.
6. أحمد أبو سعد (1961م) أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي دراسة ومختارات، ط1 دار الشرق الحديث بيروت- لبنان، ص18.
7. شوقي ضيف (الدكتور) (1956م) المرجع السابق ص 47
8. عمرو أبو الفضل (21-ديسمبر-2012م) التاجر سليمان رائد الرحلات البحرية إلى الشرق الأقصى، www.alittihad.ae/bookfair.php
9. أحمد القصبي (11-4-2009م) أدب الرحلات عند العرب والمسلمين، www.ar.wikipedia.org/wiki
10. أحمد القصبي (11-4-2009م) المرجع السابق.
11. زكريا إدريس –أوبو حسين 1421ه/2000م المأدبة الأدبية لطلاب العربية في إفريقيا الغربية مطبعة دار النور، أوتشي –نيجيريا، ص174
12. شيخو أحمد سعيد غلادنثي(الدكتور) (1414ه/1993م) حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا ط2، المكتبة الأفريقية، ص 10.
13. سليمان صالح الإمام الحقيقي (2010م) المرجع السابق ص97.
14. منير الدين الرياضي بن صلاح الدين، 1429ه /2008م، العبرة قصائد في الدعوة والإرشاد والتوجيه: مطبعة معهد الدعوة الإسلامية إديمو لاجوس. ص97-103
15. إبراهيم بن جنيد الأبيوكوتي، (1431ه 2010م) زيارة ابن جنيد لمدينة الكولخ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة ابن جنيد أبيوكوتا، ص 7
16. محمد البوصيري سلمان الإلوري(الشيخ) (1963م) ذكريات في الأزهر بين الماضي والحاضر مطبعة السعادة 12ش الجداوي- القاهرة ص15
17. مشهود رمضان جبريل الأميري الكيتوي(2004م) الشيخ آدم عبد الله الإلوري نسبته وشخصيته ووصيته ط1 مكتبة الله نور أوجوكورو-لاغوس. ص48

18. إسحاق أيوب ببأويي (1421ه/ 2000م) "استغلّ هذا المجال للتعرف على قرية العربية بإنغال" قصيدة جادت بها قريحته في وصف رحلته إلى قرية إنغال.

19. محمد بن إبراهيم النفاوي: فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق (مخطوط) مكتب الخليفة إبراهيم ميماسا.ص 2-3

20. أبوبكر ابن الإمام صلاح الدين الإلوري، (بدون تاريخ) مآثر الخيرة في زيارة صاحب الفيضة بمدينة كولخ مطبعة كيؤليري الإسلامية رقم 30 شارع أوبومالو، إلورن. ص25

21. إبراهيم بن جنيد الأبيوكوتي، (1431ه 2010م) المرجع السابق.ص9

22. مشهود محمود جمبا (الدكتور)، (1430ه/ 2009م) من إلورن إلى تمبكتو(رحلة عبر جنوب الصحراء الكبرى بحثا عن ماضي إفريقيا): من منشورات المركز النيجيري للبحوث العربية.ص23

23. الطاهر محمد داود (الدكتور) (2006م)، المرجع السابق ص.57-86

24. المرجع نفسه ص57

25. المرجع نفسه ص67

26. علي أبوبكر (الدكتور) الثقافة العربية في نيجيريا من 1750 إلى 1960 عام الاستقلال ط2 ص472